مكانة الفرونكوفونية في السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر

د/ حطاب عبد المالك
جامعة خميس مليانة

الملخص :

في البداية نشير أن الوجود الثقافي الفرنسي بالجزائر لم يأت صدفة و لم يكن نتاج تراكمات تاريخية، بل كان محصلة لسياسة استعمارية فرنسية ثقافية منظمة وممنهجة عمل من خلالها المستعمر على تجهيل المجتمع الجزائري وسلب ثقافته العربية الإسلامية وغرس ثقافة فرنسية تساعد وتساهم في تحقيق مجمل الأهداف الفرنسية ليس فقط في الجزائر ولكن في العالم بأسره في إطار محاولة فرنسا استعادت مكانتها بين دول العالم الكبرى. و بعد الاستقلال، ونظراً لطبيعة العلاقات الجزائرية الفرنسية خاصة الجانب الثقافي، فإن فرنسا لم تجد أي صعوبة في الربط بين مصالحها الحيوية وثقافتها عبر سياستها الخارجية تجاه الجزائر من خلال توظيف "الفرونكوفونية" لتحقيق أهدافها الثقافية بها، إذ تعد الجزائر في هذا الإطار من أكبر الدول الفرونكوفونية في العالم، و بذلك يمكن أن تكون هذه الأخيرة أهم أداة لتوسيع نطاق النفوذ السياسي الفرنسي في الجزائر.

Abstract :

The French cultural presence in Algeria is a product of historical circumstances. It was a result of an organized French colonial policy. As colonizer, the French ignored the Algerian Arab culture and imposed their value that helped to achieve their domination not only in Algeria but in its whole empire. The objective here is to regain its place among the world's major powers.

After independence, France found no difficulty in linking its vital interests and culture through its foreign policy toward Algeria. This policy known as "Francophonie" was to achieve its cultural objectives. The opening of the French school system to the Algerian population gave to the colonizer the opportunity to spread their culture and their language. This process will expand the French political influence in Algeria.

مقدمة:

لقد أثبتت الأدوات الثقافية نجاعتها و فعاليتها في تحقيق أهداف السياسة الخارجية في كثير من الحالات، فقد شهدت هذه الأساليب و الآليات اهتماماً متزايداً من طرف دول العالم الكبرى التي تروج لثقافتها و قيمها، لاسيما تلك التي لازالت تسعى إلى مواصلة السيطرة على مستعمراتها السابقة من خلال العمل على الهيمنة على أفكار وثقافات شعوبها، عن طريق استحداث آليات جديدة لنشر نمط معين من الثقافة التي تخدم مصالحها.

بهذه السياسة المنتهجة، تؤثر تلك الدول على مدركات صناع القرار في الدول المستهدفة بتوجيه ميولهم و خياراتهم اعتماداً على الوسائل و الآليات الثقافية التي تساهم في الترويج لنموذج معين للحياة أكثر جاذبية و إقبالاً، و نشر نسق معين من الأفكار والتصورات التي تنسجم مع الأهداف التي تريد تحقيقها.

فرنسا هي واحدة من بين الدول التي تبنت هذه السياسة، و لازالت تؤمن بأهمية الحفاظ على مكانة ثقافية مميزة على المستوى العالمي عموماً و على مستوى مناطق نفوذها خصوصاً، مما يسمح لها بنشر نموذج الحياة الذي أسسته لنفسها حتى تتمكن من تحقيق الأهداف السياسية و الاقتصادية الأخرى.

في هذا الإطار، يؤمن صناع القرار في باريس أن الوجود الثقافي الفرنسي هو أهم وسيلة لتوسيع نطاق النفوذ السياسي لفرنسا و زيادة تقاربها مع الدول التي تقع في دائرة اهتماماتها،" مما يعطي ضمانات أكيدة لازدهار مصالحها الاقتصادية في العالم الخارجي."[1]

و بناءاً عليه، فإن فرنسا تجتهد منذ استقلال الجزائر إلى اليوم على تطوير و خلق وسائل لتعزيز وجودها الثقافي بهدف الحفاظ على مكانتها، مركزة أساساً على الفرونكوفونية التي تراها عاملاً يؤكد وجودها سياسياً و اقتصادياً، لذا حاولت من خلال شراكة ثقافية علمية وتقنية تعزيز مكانة الثقافة الفرنسية في المؤسسات الجزائرية بمختلف مجالاتها.

و تأتي هذه الدراسة لتبيان مكانة الفرونكوفونية في السياسة الخارجية الفرنسية تجاه الجزائر كأهم أداة لتحقيق أهدافها الثقافية .

ما هي الفرونكوفونية؟:

تشير لفظة "الفرونكوفونية" في قاموس المعجم الوسيط إلى "رابطة تضم الدول والشعوب التي تتحدث بالفرنسية كلغة رسمية أو حتى لغة عادية، وقد ظهر هذا المصطلح لأول مرة في القرن التاسع عشر."[2]

وتشير الفرونكوفونية إلى مجموع المؤسسات و الأشخاص الذين يستخدمون اللغة الفرنسية خلال حياتهم اليومية سواء باعتبارها اللغة الأم أو اللغة المكتسبة. و حسب المنظمة الدولية للفروكوفونية،

فقد ظهرت هذه المفردة لأول مرة حوالي سنة 1880 عندما وظفها عالم الجغرافيا الفرنسي "Onésime Reclus"[3] لوصف مجموع الأفراد و الدول التي تتحدث الفرنسية في مختلف مناطق العالم.

و تعتبر الفرونكوفونية ينبوع الثقافة الفرنسية باعتبارها "تضم إلى جانب من يتقن اللغة الفرنسية، أولئك الذين يقرؤون الأدب الفرنسي ويستمعون إلى الموسيقى الفرنسية ويعرفون تاريخها وأعلامها عبر التاريخ و حتى أبطالها الرياضيين ومشاهيرها،"وهي تيار أنشأته فرنسا، توجهه بأدواتها وتديره بأجهزتها"[4] وهو ما يحدث في الجزائر "إذ تشغل فرنسا لغتها للبقاء بها في شتى المجالات،"[5] و"تعد البلد الثاني في العالم فرونكوفونياً"[6] بالرغم من أنها ليست عضو في المنظمة العالمية للفرونكوفونية، و رغم أن فرنسا تخلت عنها جغرافياً إلا أنها مصممة على ألا تتخلى عنها ثقافياً، وسياستها في هذا المجال تدل على ذلك.

مهم أن نميز بين francophonie و Francophonie، إذ تستخدم الكلمة الأولى لوصف جميع المتحدثين باللغة الفرنسية مهما كانت جنسياتهم و مهما كان موقعهم الجغرافي، أما توظيف الكلمة الثانية فهو للإشارة إلى الإطار المؤسسي الذي يحكم العلاقات بين الدول الناطقة بالفرنسية.

واقع الفرونكوفونية في الجزائر

تعد الجزائر من أكبر البلدان العربية التي تتحدث – إلى جانب اللغة العربية– اللغة الفرنسية بالرغم من أنها لا تنتمي إلى المنظمة الدولية للفرونكفونية، و يمكن إرجاع ذلك للشد و المد الذي تتعرض له اللغة الفرنسية في الجزائر لاعتبارات تاريخية، اجتماعية و أخرى متعلقة بالهوية الوطنية، و إنه لمن المؤسف أن اللغة الفرنسية لازالت تشكل محور نقاشات النخب الجزائرية المثقفة. في هذا الإطار ينادي البعض بضرورة التحرر من هذه اللغة و محاربة تواجدها في أوساط المجتمع حتى داخل المؤسسات الرسمية الجزائرية لاسيما السيادية منها، بحجة أن مواصلة العمل بها واستعمالها في كلامهم و نقلها عبر الأجيال بالرغم من الاستقلال التام يعني استمرار للاستعمار الفرنسي بالجزائر لكن بطرق أخرى، في حين يرى البعض الآخر أن مكانة اللغة الفرنسية في الجزائر هي نتاج طبيعي لفترة الاحتلال

التي دامت قرابة القرن و نصف القرن و التحرر منها نهائياً ما هو إلا مسألة وقت.

و في ظل استمرا هذه الأزمة بين الواقعيين و الإيديولوجيين، يمكن إرجاع ذلك الجدل لعدم القدرة أو بالأحرى الاقتناع بالفرق بين اللغة و الثقافة، إذ تعتبر اللغة الأداة الرئيسية و الأولى بالنسبة للفرد لتلقي المعرفة و العلوم باعتبارها تمثل الحاضنة المنطوقة و المكتوبة لمختلف الأفكار الإنسانية و يصعب بدونها قيام حياة اجتماعية متماسكة، فلا يمكن أن نتصور تناقل الأفكار و الآراء و العلوم بين أفراد المجتمع دون استعمال هذه الوسيلة، فعندما يحاور الإنسان نفسه ويتجادل معها، فهو

يفعل ذلك باللغة التي يحسن استعمالها، في حين تعبر الثقافة عن مجموعة الأفكار و القيم والمبادئ و المعتقدات و حتى السلوكات و طرق العيش التي يتبناها الإنسان، و يعتبرها منهج حياته إذ تساعده على رسم طريق العيش أمامه، و اعتبرها عالم الأنثروبولوجيا البريطاني "إدوارد بيرنت تايلور" *Edward Burnett Tylor* " أنها هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة و المعتقدات و الفن و الأخلاق والقانون و العادات و كل القدرات و العادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عظواً في المجتمع"[7].

إلا أن العلاقة بين اللغة والثقافة و حتى الهوية هي علاقة عميقة باعتبار أن اللغة ليست فقط وسيلة للتخاطب والتواصل بين الأفراد، بل هي أهم أداة –إن لم نقل الوحيدة– لنقل ونشر مختلف الثقافات بما تحتويه من تقاليد وعادات وعقائد وقيم ومناهج الحياة وطرق التفكير و نماذج العيش، و من هنا يمكن أن نقول أن اللغة هي وعاء للثقافة وهي أداة أساسية في عملية التنشئة الاجتماعية و السياسية التي يتم من خلالها تكوين الفرد وبناء شخصيته و تأكيد لكيانه ووجود واستمرار لذاته من خلال تاريخه، انتمائه وواقعه، كما أنها تمكنه من التفكير و الإبداع و التواصل مع أفراد المجتمع سواء المحلي أو العالمي. فللغة دور كبير في علاقتها بالثقافة التي تعد جوهر الهوية والشخصية الوطنية لأي إنسان، وهي الحقيقة التي أدركتها فرنسا منذ قرون وعملت على تجسيدها عبر السنين في مختلف مناطق العالم، واغتنمت أيام الاستعمار للتأثير على المجتمعات المستعمرة من خلال العمل على توجيه نمط تفكير الأفراد، تصوراتهم وحتى مشاعرهم مستغلة إرثها الثقافي.

و جدير بالذكر أن أهم ما تميزت به السياسة الخارجية الفرنسية في الفترة ما بين 1974–1998 هو إهمالها للجماعة الفرونكفونية في العالم و تراجع دورها في هذا المجال، في هذا الصدد يرى "ألبير صالون" Albert Salon8 أن علاقة فرنسا بذلك المجتمع أو تلك الجماعة لم تشهد حركية واسعة أو مشاريع كبرى أو حتى تظاهرات توحي بأهمية الفرونكفونية في فكر صناع القرار آنذاك باستثناء بعض المبادرات المحتشمة التي كانت في حد ذاتها تفتقر إلى موارد مادية و معنوية، في حين كانت و لازالت دول أروبية أخرى تولي اهتماماً كبيراً بالروابط اللغوية و التاريخية التي تجمعها مع دول أخرى و جعلت منها جسوراً و روابط قوية لتعزيز علاقاتها في شتى المجالات.

و كان الرئيس الفرنسي السابق "فرانسوا ميتران" *François Mitterrand* يتطلع من خلال التجمع الأول الذي دعا فيه رؤساء الدول والحكومات التي تشكل اللغة الفرنسية رابطاً مشتركاً بينهم في شهر فبراير 1986 إلى إقامة أو تأسيس كومنولث[9] *Commonwealth* حسب ما تمليه السياسة الفرنسية، و ذلك بناءاً على ما جاء في كلمته الافتتاحية و التي أكد من خلالها "أن فرنسا اليوم في بداية عمل أو مشروع دائم و متواصل الذي سيشهد عليه التاريخ و يتذكره... إذ أننا من خلال لغة مشتركة، نشكل و نرسم ملامح فكرنا المشترك وعملنا الخاص."[10]

لقد أثار بناء الاتحاد الأوربي بمختلف هياكله و مؤسساته و انتشار اللغة الإنجليزية في القارة العجوز ضرورة الوقوف على تدهور وتراجع اللغة الفرنسية ليس في أوربا فقط، و لكن حتى في الدول الفرونكفونية، و قد مس هذا التراجع في استخدام اللغة الفرنسية حتى المؤسسات الأوربية والمنظمات الدولية الحكومية و غير الحكومية أمام الانتشار الواسع للغة الانجليزية في العالم، و مما زاد من خطورة الوضع –بالنسبة للفرنسيين– أنهم أنفسهم أصبحوا يفضلون استعمال اللغة الانجليزية في كلامهم اليومي لاسيما أثناء تعاملهم مع السياح القادمين من مختلف دول العالم.

و نتيجة لذلك، بادرت فرنسا باتخاذ جملة من الإجراءات أو المبادرات التي من شأنها أن تعيد للغة الفرنسية مكانتها الأصلية، في هذا الإطار يمكن الإشارة إلى إعلان الرئيس الفرنسي "جاك شيراك" *Jacques Chirac* خلال قمة بيروت 2002 بأن فرنسا ستعيد إحياء الفرونكفونية من جديد من خلال إضافة مبلغ عشرين مليون أورو إضافي للمبلغ المخصص لذلك سنوياً.

هذه المبادرة وصفها ممثلوا المنظمة الفرونكوفونية بمختلف أجهزتها و فروعها بالضرورية من أجل تقوية الروابط اللغوية و القيمية التي تجمع 84 دولة"[11] و التي تتطلع إلى اكتساب مكانة خاصة في السياسة الثقافية الخارجية الفرنسية.

و من الناحية الأخرى فإن فرنسا لازالت تحاول أن تجعل من لغتها عاملاً و عنصراً من وجودها الدولي و يكون بمثابة آلية لتنفيذ أهداف سياستها الخارجية تجاه الجزائر، و تحقيق غايات مختلفة بعد فشلها و عدم نجاعة الآليات الأخرى.

فالجزائر من خلال اعتمادها سياسة تنويع الشركاء الاقتصاديين و السياسيين، خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية والانفتاح على مختلف عواصم الغرب، كنتيجة لتمسك فرنسا بأسلوبها القديم في التعامل معها كمستعمرة قديمة، وهيمنة هذه النظرة على البنى السياسية في باريس، و هي "الرؤية التي نجدها في قانون تمجيد الاستعمار الذي أصدرته الجمعية الفرنسية في 23 فبراير 2005 "[12].

هذا التوجه الجديد في السياسة الخارجية الجزائرية أقلق باريس و جعلها تعيد مراجعة فعالية آليات تنفيذ سياستها الخارجية تجاه الجزائر لتولي اهتماماً كبيراً بالآليات الثقافية لتحقيق أهدافها.

و جدير بالذكر أن هذا التوجه ليس بالجديد في السياسة الخارجية الفرنسية تجاه الجزائر، وإنما يعود بجذوره إلى الفكر الديغولي و الذي رد على منتقديه في باريس عشية استقلال الجزائر أنه ترك فيها قبل مغادرتها بذورا سوف تينع بعد حين.

الأهداف الثقافية الفرنسية في الجزائر:

من الواضح أن نشر الثقافة الفرنسية عبر مختلف مناطق العالم يعتبر من بين أهم الأهداف الثابتة في الإستراتيجية والسياسة الفرنسيتين التي يعمل أصحاب القرار في الإليزيه على إرسائها. لقد أدرك هؤلاء أن مكانة فرنسا في العالم لا يمكن تحقيقها فقط من خلال الاعتماد على تحقيق الأهداف

السياسية و الاقتصادية و العسكرية، بل أعطوا اهتماماً كبيراً لثقافتهم وعملوا على نشرها عبر أرجاء العالم خاصة في دول العالم الثالث لاسيما مستعمراتها السابقة.

في هذا الإطار اعتبر المسؤولون الفرنسيون أن تعزيز الوجود الثقافي الفرنسي عبر مختلف دول العالم يمكن أن يكون أداة رئيسية لتوسيع نطاق النفوذ السياسي لفرنسا، "مما يوفر ضماناً أكيداً لازدهار مصالحها الاقتصادية في العالم الخارجي."[13]

وإلى جانب الاهتمام الواضح لفرنسا اقتصادياً و أمنياً بالجزائر، شكلت هذه الأخيرة هدفاً ثقافياً فرنسياً منذ زمن بعيد، فرغم أن اللغة الرسمية بالجزائر هي العربية، إلا أن حكوماتها المتعاقبة عجزت عن تفعيل جهودها من أجل تدعيم عملية "التعريب "[14] وأصبحنا اليوم نجد اللغة الفرنسية في كل مكان، في الجزائر اليومية، في وسائل الإعلام السمعية والبصرية، في الجامعات، نقاشات النخبة، المراسلات و النصوص القانونية الرسمية لمختلف مؤسسات الدولة وأجهزتها... ناهيك عن الشارع الجزائري أين يتواجد المواطن البسيط الذي هو الآخر تأثر سلبياً بهذه الظاهرة ، فصار أكثر حديثه فرنسياً معتقداً أنها جزء طبيعي من منظومته اللغوية، جاهلاً بالتداعيات الممكنة لهذه اللامبالاة.

وفي ظل هذه الحالة المعبرة عن التخبط العشوائي الثقافي، سعت فرنسا على الإبقاء عليها، بل أكثر من ذلك عملت على تطوير وخلق وسائل لتعزيز وجودها الثقافي بالجزائر حفاظاً على مكانتها بها وذلك منذ 1962 تاريخ استقلال الجزائر، إذ عملت من خلال شراكة ثقافية علمية وتقنية مؤسسة على تعزيز مكانة الثقافة الفرنسية في المؤسسات الجزائرية خاصة المؤسسات الرسمية والجامعات و المعاهد و مراكز البحث العلمي، غير أن هذه السياسة تعثرت بسبب الأزمة الأمنية التي عرفتها البلاد بداية التسعينات، واستمرت آثارها إلى غاية أوائل الألفينيات و انعكس ذلك على مشاريعها الثقافية في الجزائر. في هذا الإطار يمكن الإشارة إلى أن "فرنسا خصصت مثلاً سنة 2003 في المجال الثقافي 0.50 أورو لكل مواطن جزائري مقابل 2 أورو لكل مواطن مغربي و1.75 أورو بالنسبة للمواطن التونسي."[15]

تعتمد فرنسا اليوم في إطار تحقيق أهدافها الثقافية في الجزائر من خلال خمس مراكز ثقافية موجودة عبر التراب الوطني وهي الجزائر العاصمة، عنابة، قسنطينة، وهـران وتلمسان، وثانوية ألكسندر دوماس *Alexandre Dumas* بين عكنون بالعاصمة والمدرسة العليا للأعمال بالصنوبر البحري .

أما "أهم جسر تعتمد عليه في هذا الإطار هو استقبالها الباحثين وطلبة الجامعات الجزائرية بفرنسا"[16]، و الذي أخذ طابعاً رسمياً من خلال برامج التعاون العلمية المختلفة بين البلدين. وعليه يمكن ملاحظة توجهات السياسة الثقافية الفرنسية تجاه الجزائر والتي تهدف من عملية التعاون الثقافي إلى خلق عناصر جزائرية متشبعة ومتأثرة بالثقافة الغربية عموماً والفرنسية خصوصاً من خلال

تعلمها اللغة الفرنسية في الحضارة الغربية حتى تتمكن من استغلالهم لتحقيق أهدافها الإستراتيجية عن طريق ترويج هذه النخبة المفرنسة" للأفكار والتوجهات الفرنسية خاصة إذا كانت تتمتع بمواقع هامة في السلطة السياسية ودوائر صنع القرار.

في هذا الإطار" ارتكز التعاون الثقافي بين البلدين "حسب المنظور الفرنسي" على أربعة محاور أساسية:" [17]

1- دعم تكوين الموارد البشرية من خلال برامج المشاركة بين الجامعات ومراكز البحث العلمي والمستشفيات الجامعية، مثلاً PROFAS B+[18].

2- دعم تعليم اللغة الفرنسية وهي أساس المشاركة التربوية واللغوية.

3- تطوير المشاركة الثقافية بين الضفتين مع التركيز على احترام التعددية والاختلاف، سواء الديني الحضاري، الثقافي، التاريخي ...

4- الدعم المؤسساتي خاصة قطاعات البحث العلمي، العدالة، الأمن، الحماية المدنية... والسياسات العمومية باختلاف قطاعاتها، قطاع السكن، الموارد المائية، النقل، الفلاحة والبيئة.

وتسعى فرنسا من خلال شراكتها هذه إلى إيجاد مكان ودور في عملية الإصلاحات الشاملة التي أطلقها صناع القرار في البلاد سنة 2000 و التي عرفت بداية تحسن الأوضاع الاقتصادية والأمنية وبروز فكر جديد على الساحة السياسية الداخلية للجزائر و الذي تمحور حول ضرورة المصالحة و تجاوز مخلفات الأزمة الأمنية. و حرصت فرنسا بذلك على لعب دور أساسي في هذا المشروع حفاظاً على وجودها الثقافي الذي يعد من أهم أولويات سياستها العالمية، بالإضافة إلى خوفها على فقدان الجزائر في إطار صراع الإيديولوجيات الذي حاولت من خلاله الفرانكفونية إيجاد مكاناً فيه.

وجدير بالذكر أن نسبة الوجود الثقافي الفرنسي بالجزائر أنه لم يأت صدفة بل كان نتيجة لسياسة استعمارية فرنسية ثقافية منظمة عملت فرنسا من خلالها تجهيل المجتمع الجزائري ونزع ثقافته العربية الإسلامية وغرس ثقافة فرنسية تساعد وتساهم في تحقيق مجمل الأهداف الفرنسية ليس فقط في الجزائر ولكن في العالم بأسره في إطار إستراتيجية فرنسا الكونية.

تُعدّ الفرانكفونية عاملاً أساسيا في نشر الثقافة الفرنسية و ما يدعّم وجودها واستمرارها أولئك الذين يتقنون اللغة الفرنسية، و لا يتوقف الأمر عند هذا الحدّ بل هناك من يهتمّون بالأدب الفرنسي، و يتابعون برامج لمختلف القنوات الفرنسية عن طريق الهوائيات المقعّرة، و الشبكة العنكبوتية لمختلف مجالات الحياة، ثقافية و سياسية، و اجتماعية، و اقتصادية، فالفرانكفونية إذن " تيار أنشأته فرنسا، توجهه بأدواتها وتديره بأجهزتها"[19] وهو ما يحدث فعلاً في الجزائر " إذ تشغل فرنسا لغتها للبقاء بها في شتى المجالات" [20]، و هي " تعد البلد الثاني في العالم فرانكوفونيا "[21] ورغم أنها تخلت عنها جغرافياً فإنها مصممة ألا تتخلى عنها على الأقل ثقافياً، وسياستها في هذا المجال خير دليل على

ذلك. و هذا دأب الحكومات الفرنسية المتعاقبة في نشر وغرس الثقافة الفرنسية في الجزائر بطريقة تمكنها من الحفاظ على مصالحها الحيوية من خلال النخب الحاكمة وصناع القرار الذين قدّمت لهم فرنسا تكوينا خاصّا خلال فترات تدريبهم، إذ عملت على تلقيهم نظريات ومصطلحات ومفاهيم جديدة تخدم أهدافها الإستراتيجية، كما عملت على الدعوة إلى الانفتاح التكنولوجي والعلمي عبر البوابة الفرانكفونية من"أجل القضاء نهائياً على الهوية الوطنية الجزائرية عن طريق نشر الثقافة واللغة الفرنسية بين الشعوب الأخرى على حساب ثقافتها ولغتها الأصلية"[22] إلى درجة القول أن "الجزائر هي فرنسا."[23]

ولقد حاولت الجزائر التصدي للأهداف الثقافية الفرنسية بها، ولعل أهم مؤشر على ذلك نلمسه من خلال الخطاب الذي ألقاه الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة في بيروت أكتوبر 2002 بمناسبة القمة IX للفرانكفونية و الذي أكد على انفتاح الجزائر على العالم الخارجي وذلك بالرغم من عدم انضمامها إلى المنظمة الدولية للفرانكفونية، و كانت مشاركته في هذه القمة بناءاً على دعوة الرئيس اللبناني، وفي تلك الفترة بالذات قامت اللجنة المكلفة بإصلاح التعليم في الجزائر 2001-2002 بتقديم تقريرها الذي أظهر في جزئه الخاص بموقف المجتمع الجزائري من اللغة الفرنسية وتعلمها حساسية كبيرة تجاهها وأبدى تحفظا عليها ليس كلغة بل كثقافة.

ورداً على ذلك، "نظمت وزارة الخارجية الفرنسية منتدى بمعهد العالم العربي"[24] بباريس والذي رسم إستراتيجية للشراكة الثقافية بين البلدين، وضع من خلالها برنامجاً لتكوين أساتذة جزائريين لتعليم اللغة الفرنسية، وبينت الوزارة دائماً من خلال هذا المنتدى أنها ستدعم هذه المشاركة الجديدة والتعاون فقط إذا كان ينظر إلى الفرنسية كإطار يريد أخذ حظه كجميع اللغات الأخرى وليس إمبريالية لغوية جديدة.

ويتضح لنا بصورة أوضح هذا التوجه الثقافي الفرنسي من خلال "التقرير الإستراتيجي للسياسة الخارجية الفرنسية في شقها الثقافي، "[25] والذي أعدته وقدمته لجنة الشؤون الثقافية بمجلس الأمة الفرنسي في دورته العادية 2004-2005، إذ اتفق معدو التقرير على أن السياسة الخارجية الفرنسية بين سنوات 1979-1998 أهملت بكثير دور الفرونكوفونية في نشر الثقافة الفرنسية والترويج لإنجازاتها "وأهملوا أبعادها الرئيسة"[26] والمتمثلة أساساً في ضرورة الاعتماد على اللغة الفرنسية باعتبارها عنصر وعامل مهم في وجودها وحركتها الدولية، وحجر الزاوية لسياستها الخارجية، خاصة تجاه تلك الدول التي تسعى من خلالها تحقيق أهدافها الإستراتيجية وأهمها إعادة المجد "للإمبراطورية الفرنسية".

ونظرا لطبيعة العلاقات بينها وبين الجزائر خاصة فيما يتعلق بالجانب الثقافي كما سبق وأن أشرنا، فإن باريس لم تجد أي صعوبة في الربط بين مصالحها الحيوية وثقافتها عبر سياستها الخارجية تجاه

الجزائر، ساعدتها ظروف كثيرة أهمها الهجرة التاريخية والمتزايدة نحوها وما نتج عنها من آثار على المجتمع والحكومة الجزائرية، ونتيجة لذلك استمرت العلاقة الثقافية غير العادية بين الضفتين رغم طبيعتها المتضاربة، إذ أحيانا تبدو الثقافة الجزائرية امتداداً للثقافة الفرنسية، وأحياناً أخرى ترجع بأذهاننا إلى سنوات الاستعمار والاحتلال.

الفرونكوفونية كآلية لتحقيق الأهداف الثقافية الفرنسية في الجزائر:

لقد شهد العالم تزايداً كبيراً بالاهتمام بالآليات و الوسائل والأدوات الثقافية لتنفيذ السياسة الخارجية وتحقيق أهدافها و ذلك راجع إلى طبيعة هذه الآليات وفعاليتها، إذ أثبتت الأساليب الثقافية أهميتها تاريخياً في الوصول إلى مختلف الأهداف السياسية.

وتحاول عدد من الدول على غرار فرنسا من خلال الآليات الثقافية التأثير على مدركات صناع القرار في الدول المقصودة أو المستهدفة والتأثير على سياستهم وتوجيه سلوكهم الخارجي والتحكم حتى في ميولاتهم و أنماط تفكيرهم، وذلك عن طريق نشر نسق معين من الأفكار والمفاهيم والتصورات التي تنسجم مع الأهداف المسطرة "وتشكل المنطلقات الإيديولوجية لصناع القرار الثقافة التي بضوئها يناظر الثقافات الأخرى ويتحدد سلوكه السياسي الخارجي باعتبار أن الإنسان هو نتاج ثقافته."[27]

بالنظر لكون اللغة من أهم أدوات الحضارة وأساس نشأتها وتطورها واستمرارها، تعتبر نشر اللغة و الثقافة الفرنسيتين والترويج لمنجزات الإمبراطورية الفرنسية من أوليات و أهداف سياستها الخارجية ليس فقط لكونها هدفا محورياً، ولكن لاعتبارها من أهم و أنجع الآليات والوسائل في تحقيق غايات و أهداف مختلفة و التي يصعب تحقيقها من خلال الاعتماد على القوة الخشنة.

وباعتبار فرنسا صاحبة تاريخ استعماري طويل مكنها من استغلال دروس و عبر عن نجاعة الآليات الثقافية لتحقيق نجاحات سياسية و هو ما عبر عنه "شارل ديغول" *Charles de Gaulle* عشية استقلال الجزائر من خلال مقولته الشهيرة بعد مغادرته لها أنه "ترك بذوراً سوف تنبع بعد حين" و كان يقصد بذلك الثقافة الفرنسية، إذ كان ينتظر أن تساهم هذه الأخيرة في استكمال المشروع الاستعماري للدول المستعمرة خاصة دول العالم الثالث و على رأسها الجزائر، وعملت بذلك على سبيل المثال لا الحصر على إرسال باحثين فرنسيين ورجال دين لنشر و الترويج للحضارة والثقافة الفرنسية أو كما سمي بالجزائر آنذاك بممارسة سياسة فرنسية تهدف إلى تجهيل الشعب الجزائري وتغييب اللغة العربية ومحو الهوية الوطنية الجزائرية تفعيلاً للمرسوم الذي أصدره رئيس مجلس وزراء فرنسا آنذاك شوطون *Camille Chautemps* في 08 مارس 1938 والذي نص على حظر استعمال اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية في الجزائر، ولا يجوز تعلمها وتعليمها إلا على هذا الأساس.

ورغم استقلال الجزائر عام 1962 و ما تلاه من محاولات لاسترجاع اللغة و الثقافة العربية لمكانتها

في المجتمع، إلا نأن فرنسا لجأت و إلى حد اليوم إلى الاستمرار في تقديم مساعدات ثقافية و تقنية مستغلة ظروف الجزائر من تراجع النمو وتدني مستوى التعليم لاسيما التعليم العالي و البحث العلمي، مما ساهم في تفعيل هذه الآليات من أجل تأدية دورها في تحقيق و تنفيذ أهداف السياسة الخارجية الفرنسية تجاه الجزائر، ومن أهم تلك الوسائل و أبرزها :

أ- وسائل الإعلام و الاتصال:

أكد المفكر الفرنسي "جاك أتالي" *Jacques Attali* المولود بالجزائر " أن عالم اليوم أصبح يسيطر عليه الإعلام وليس الطاقة... إذ أن السيطرة على المعلومات لا على المواد الأولية هي التي تحدد كل شيء، حتى الحرب و السلام"[28] وجاء هذا التصريح بعد اقتناعه بالمكانة التي احتلتها مختلف وسائل الإعلام و الاتصال في السياسة الدولية كوسائل لتحقيق أهداف السياسة الخارجية للدول. ومع تنامي وسائل الاتصال الجماهيري بمختلف أنواعها وسعة انتشارها وسط الجماهير، وكثرة الإقبال عليها، خاصة وسائل الإعلام المرئية، ازداد الاهتمام بها – بما تملكه من نفوذ جماهيري – لتصبح من أهم الآليات لتحقيق و تنفيذ السياسة الخارجية في الوقت الراهن.

وقد آمنت فرنسا بهذه الحقيقة وأعطتها أهمية كبرى و اعتمدت على هذه الوسائل لنشر لغتها و ثقافتها عبر أرجاء العالم مع التركيز على مستعمراتها السابقة باعتبار أن الأرضية مهيأة لذلك، و أولت الجزائر باهتمام كبير و خاص لطبيعة العلاقات الثنائية لاسيما الشق التاريخي الذي اعتمدت عليه كثيراً لبعث مشاريعها الثقافية في البلاد، إذ قامت بذلك الحكومة الفرنسية بإنشاء رئاسة مشتركة لقناة TV5 وقناة فرنسا الدولية CFI، " وتعد القناة الأولى من أهم القنوات الفضائية الفرانكفونية التي تستقطب اهتمامات الجزائريين إذ تتصدر قائمة القنوات الدولية التي تبث عن طريق الأقمار الصناعية باللغة الفرنسية، و توجه قناة TV5 برامجها إلى القنوات الوطنية الإفريقية "[29] و تشهد هي الأخرى إقبالا كبيراً للأسر الجزائرية.

و جدير بالذكر أن فرنسا تصدر ما يقارب 2000 دورية مكتوبة بالغة الفرنسية خارج حدودها، تهدف أغلبها إلى الترويج لسياساتها عبر مختلف دول العالم من خلال توفير معلومات متنوعة عن الثقافة الفرنسية و انجازاتها في شتى المجالات.

ب- المراكز الثقافية و المؤسسات التربوية:

تنتشر المراكز الثقافية و المؤسسات التربوية الفرنسية عبر دول العالم و تعمل على التدريب والتأهيل و نشر التعليم انلفرنسي من خلال برامج خاصة و خدمات متعددة من تبادل المعلومات و المنح الدراسية التي يشرف عليها المراكز الثقافية بالتنسيق مع الهيئات الدبلوماسية، إذ تمتلك فرنسا قرابة 1060 مركز ثقافي موزع على 140 دولة تعمل على توثيق الروابط الحضارية بينها و بين الدول المتواجدة فيها.

و رغم ذلك، حاولت الجزائر مواجهة هذا الواقع من خلال العمل على التخلص من الثقافة الفرنسية المغروسة في أفراد مجتمعها و إحياء الثقافة العربية و الهوية الوطنية، وذلك عن طريق رد الاعتبار للغة العربية كلغة وطنية رسمية حسب ما نص عليه قانون التعريب الذي صدر في الخامس من يوليو 1998، و تنشيط الحياة الثقافية بعدما عزلتها نهائياً أحداث الأزمة الأمنية. غير أن هذه الوضعية جعلت من أفراد المجتمع الجزائري يتكلمون على الأقل لغتين مختلفتين وهو ما جعلها تعيش في عوالم مختلفة من الواقع، حيث يؤثر اختلاف وتعدد اللغات داخل أفراد المجتمع الواحد في مدركاتهم الحسية وأنماط تفكيرهم باعتبارها –اللغة– الموجه الأساسي للحقيقة والواقع الاجتماعي الذي يعيشه المتكلمون بها.

وبذلك شعرت فرنسا بأن مصالحها تتعرض للخطر فساهمت إلى حد ما في ظهور صراعات داخل الإدارة الجزائرية بين المعربين و المفرنسين، و المصالح الثقافية باسم اللغة و الدين وأحياناً باسم اللهجات المحلية أهمها الأمازيغية، واستغلت بذلك ظروف و طاقات عناصر شبابية كالطلاب و المهاجرين باختلاف انتماءاتهم لدفعهم إلى دائرة الصراع ومعارضة النظام، بدل توجيههم إلى دوائر الحوار و النقاش والاجتهاد و العمل على التفكير في أساليب تزيد من تماسك الأمة بعدما شتتها الأزمة الأمنية والظروف الاقتصادية، وهو ما حدث فعلاً بعد قانون التعريب إذ انفجرت أحداث بالجزائر تنادي بالاعتراف بالأمازيغية بدل كونها مجرد لهجة محلية، وقد دفعت هذه الأحداث إلى اعتراف الحكومة الجزائرية بالأمازيغية لغة وطنية في البداية وصولاً إلى الاعتراف بها لغة رسمية ن2خلال مراجعة الدستور الجزائري سنة 2016.

وقد ساهمت كثيراً وسائل الإعلام الفرنسية في هذا المشكل إذ تطرقت إليه من زاوية حقوق الإنسان وحقوق الأقليات واتهمت الجزائر خلال الأزمة الأمنية بعد إلغاء نتائج الانتخابات بأنها دولة غير ديمقراطية و لا تحترم خيارات الشعب، كما ظلت تردد أوائل التسعينات فكرة انتهاك حقوق الإنسان من طرف الحكومة الجزائرية والتي حملتها مشكلة المفقودين وانتهاك حقوق الأقليات وعلى رأسها البربر أو الأمازيغ.

و جدير بالذكر "أن التقرير الذي أعدته لجنة إصلاح التعليم في الجزائر و التي عملت خلال 2001–2002، أثار هو الآخر جدلاً واسعاً وسط المثقفين في الجزائر بين معارض و مؤيد لضرورة أن تلعب اللغة الفرنسية دوراً محورياً خلال عملية إعادة تأهيل البرامج البيداغوجية في مؤسسات التعليم في الجزائر"[30]، و قد أثبتت النقاشات التي أثيرت بعد نشر التقرير السالف الذكر وسط الأوساط التربوية و الثقافية في الجزائر أن هناك نسبة كبيرة من المجتمع الجزائري مرتبطة بشكل كبير باللغة العربية –ارتباطاً دينياً على وجه التحديد– و ترفض أن تنافسها أية لغة أخرى بما في ذلك لغة المستعمر، و أرجعت فشل المنظومة التربوية إلى سيطرة اللغة الفرنسية على الحياة اليومية

للمجتمع الجزائري. و عكس هذا التيار المحافظ، هناك من يرى أن إصلاح التعليم في الجزائر و تطويره يستلزم بالضرورة أن تأخذ فيه اللغة الفرنسية مكانة أكبر، بل أكثر من ذلك فقد ربطوا نجاح هذا المشروع بحجم المكانة التي تعطى للغة الفرنسية فيه.

و في إطار هذا الجدل اللغوي و الثقافي، و من خلال الفرونكوفونية، تسعى فرنسا إلى مساعدة الجزائر على تأسيس نظام لغوي ثنائي بدلاً من الصراع المستمر بين من ينظر إليها لغة تقليدية و من تعتبر لغة الحداثة. و تأسيساً على ما سبق، رأت فرنسا ضرورة تعزيز اللغتين معاً خلال عملية الإصلاح البيداغوجي و برامج التعاون التربوية و الثقافية بين البلدين و الذي يمكن أن يساعد اللغة العربية على الحداثة و بالتالي استيعاب اللغة الفرنسية مع مرور الوقت. و تتويجاً لهذه الرؤية، تم تنظيم منتدى بمعهد العالم العربي بباريس بعنوان "الفرنسية العربية– العربية الفرنسية: معاً لبناء تصور متعدد اللغات"[31] و المنظم من طرف وزارة الخارجية الفرنسية و الشؤون الأوربية، و الذي دافع عن الرؤية السابقة الذكر و رسم خارطة لتنفيذها و المتمثلة أساساً في اعتبار اللغة الفرنسية لغة أجنبية مثل باقي اللغات العالمية و من حقها أن يكون لها الحظ في الانتشار عبر العالم عموماً و الجزائر خصوصاً و لكن كلغة و ليس امبريالية لغوي جديدة.

وقد حددت شبكة المراكز الثقافية الفرنسية نشاطها منذ إعادة افتتاح المركز الثقافي في الجزائر العاصمة شهر يناير 2000 و المركزين الثقافيين في وهران و عنابة مارس 2002 و قسنطينة مايو 2005 وتم افتتاح ثانوية "الكسندر دوماس" *Alexandre Dumas* الدولية عام 2002، كلها تعمل على تكريس الوجود الثقافي الفرنسي بالجزائر لدوره وأهميته في الحفاظ على المصالح وتحقيق الأهداف .

وفي مقابل ذلك قامت فرنسا بتقديم تسهيلات كبيرة لاستقبال الطلبة الجزائريين في جامعاتها بلغ عددهم سنة 2005 ما يقارب 21671 طالب تعمل على استغلالهم بعد تخرجهم من الجامعات والمؤسسات العلمية بدون أدنى تكاليف و الدليل على ذلك مؤسساتها و معاهدها ومستشفياتها مكتظة بالكفاءات العلمية لبلدان العالم الثالث، ويلعب هؤلاء بعد عودتهم إلى الجزائر دوراً أساسياً في تجاه المجتمع الجزائري إلى الانفتاح على الإنتاج و الصناعات والنمط الحياتي الاستهلاكي الفرنسي باعتبارهم من ضمن الفئة النخبوية المثقفة، وهو ما أعطى أهمية دائمة للوسائل الثقافية الفرنسية لتحقيق أهدافها بالجزائر.

خاتمة:

لقد تبين بوضوح أن موضوع الفرونكوفونية هو أحد المواضيع المحورية في العلاقات الجزائرية، فمن جهة تبين بوضوح أن نشر اللغة و الثقافة الفرنسيتين يعتبر هدفاً رئيسياً لفرنسا في الجزائر من خلال مختلف برامج التعاون الثقافية والعلمية و المنح الدراسية التي تساهم فيها الحكومة الفرنسية، و من

جهة أخرى فقد ساهم هذا الإرث الثقافي الفرنسي في الجزائر في تحقيق مختلف أهدافها من أمنية، اقتصادية، ثقافية و سياسية، و يرى صناع القرار في باريس أن هذه الوضعية يمكن أن تنعكس إيجاباً على تطور العلاقات بين البلدين و تفتح آفاقا جديدة للتعاون و توسيع مجالاته دون المساس بسيادة الجزائر و استقلالها. وفي هذا الصدد لم تعارض هذه الأخيرة – في إطار سياسة الانفتاح– فكرة تعلم اللغة الفرنسية والاستفادة منها كلغة أجنبية منتشرة عبر العالم من خلال كتابات مفكريها و فلاسفتها عبر مختلف العصور، و لكن لا يجب الخروج عن هذا الإطار إذ أن الفرنسية كلغة من حقها أن تأخذ حظها بين مختلف اللغات المنتشرة عبر مختلف دول العالم و لكن لا يجب اعتبارها إمبريالية لغوية جديدة.

الهوامش:

1– نازلي معوض، **العلاقات الجزائرية الفرنسية في الفترة ما بين عامي 1962–1971 استكمال الاستقلال الجزائري**، رسالة دكتوراه غير منشوراه، كلية الاقتصاد و العلوم السياسية جامعة القاهرة، 1977 ، ص، 194.

2– لمزيد من المعاني أنظر: http://www.almaany.com

3– عالم جغرافيا فرنسي ولد بتاريخ 22 سبتمبر 1837 بمدينة Orthez بفرنسا، يعتبر أول من استخدم مفهوم الفرونكفونية في إطار أعماله حول مصير الاستعمار الفرنسي في العالم.

4– محمد حسنين هيكل، **الفرانكفونية و أخواتها**، مجلة الكتب، وجهات نظر، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، العدد 7، القاهرة، 28 أغسطس 2001.

5 - Grand Guillaume, Gilbert, La Francophonie en Algérie (Paris: Hermès ,2004), pp. 75-78

6- Ibid.

7– دنيس كوش، **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، ترجمة منير السعيداني (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 20ن207)، ص 31.

8– دبلوماسي فرنسي ينشط في مجال عن الفوكوفونية في العالم، ولد في 12 مارس 1935 بفرنسا، شغل منصب نائب مدير مكلف بالتنمية، مكلف بالفرونكوفونية و اللغة الفرنسية بوزارة التعاون. حالياً نائب رئيس "مستقبل اللغة الفرنسية" و مؤسس "المنتدى الدولي للفرونكوفونية.لمزيد من التفاصيل أنظر:

revue « liberté politique » d'automne 1999.

9– ظهر مفهوم"الكومنولث بالإنجليزية (Commonwealth) في القرن الخامس عشر، وهي كلمة تعني الثروة المشتركة، أي بالإنجليزية Common wealth، أو الرخاء الجماعي بالإنجليزية The common weal ، ومن المعني القديم لكلمة ثروة بالإنجليزية Wealth التي تعني السعادة أو الرخاء ويعني المفهوم حرفياً الرخاء الجماعي.

10– لمزيد من التفاصيل أنظر كلمة الرئيس الافتتاحية:

La Francophonie : une chance pour la politique culturelle extérieure de la France ? http://www.senat.fr/rap/r04-091/r04-0911.html

11– في نوفمبر 2004 بلغ عدد الدول و الحكومات الأعضاء في المنظمة الدولية للفرونكفونية 56 دولة وعشرة دول ملاحظة، في حين يصل عددهم اليوم (سنة 2017) إلى 84 بين عضو و ملاحظ.

12 -Voir : Claude Liauzu, Colonialisme, Esclavagisme : Les Enjeux de Mémoire, libération (France) ,23 février 2005 ;

-Le Bars, Thierry et Liauzu, Claude, Et l'Histoire de la Présence Française Outre-mer ? , l'Humanité (France), 10 mars 2005.

13- نازلي معوض أحمد، **العلاقات بين الجزائر و فرنسا من اتفاقيات ايفيان إلى تأميم البترول** (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987)، ص،194.

14- Ahmed Salam Moastassime, Arabisation et Francophonie, Une Interface Possible à l'Interrogation, Algérie-France-Islam ? In Joseph Jurt (ed.) Algérie- France-islam, 1997, pp. 55-75.

15- Quai d'Orsay, in Ghorbal ,Samy, Notre Ami Jacques Chirac, Jeune Afrique (France) n°2238, 30 Novembre 2003.

16 - Présentation Des Relations Bilatérales,3 janvier 2005.Voir www.ambafrance-dz.org.

17 - Le Service de Coopération et d'Action Culturelle, 04 avril 2008. Voir www.ambafrance-dz.org.

18- هو برنامج تعاون و شراكة بين الجزائر و فرنسا بدأ سنة 1987 و تم إعادة إطلاقه من جديد و في صيغة جديدة و المعروفة باسم **بروفاس بي بلوس** PROFAS B+ سنة 2014. و منذ إنشائه سمح لمؤسسات البحث العلمي الفرنسية و مخابرها باستقبال أكثر من 10000 طالب و أستاذ باحث و إطار جزائري . و تهدف الصيغة الجديدة لهذا البرنامج إلى تطوير التعاون العلمي ذو المستوى العالي بين البلدين ويتم تمويله بالمناصفة من طرف الحكومتين الفرنسية و الجزائرية. و من أهم شروط الاستفادة من هذا البرنامج و الحصول على منحة هو الإشراف المزدوج على موضوع البحث: مشرف في فرنسا والآخر في الجزائر، بالإضافة إلى أهمية الموضوع ومعايير أخرى. و رغم أن فرنسا لا تعتبر رائدة في مجال البحث العلمي في العالم مقارنة مثلاً بالجامعات الأمريكية، البريطانية والألمانية... إلا أنها الوحيدة التي استطاعت أن توقع على اتفاق و برنامج من هذا الحجم مع الجزائر.

19- محمد حسنين هيكل، **الفرانكفونية و أخواتها**، مجلة الكتب، وجهات نظر، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، العدد 7، القاهرة، 28 أيار 2001.

20 − Gilbert Grand Guillaume, La Francophonie en Algérie (Paris: Hermès ,2004), pp. 75-78

21- Ibid.

22- حميش بن سالم، **الفرانكوفونية و الفرنسية**، المستقبل العربي (لبنان)، العدد 255، أغسطس 2000، ص، 33.

23 −Gilbert Grand Guillaume, **La Francophonie en Algérie** (Paris: Hermès, 2004). pp.−75

24 -Français-Arabe, Arabe-Français : Construire Ensemble Dans Une Perspective Plurilingue, Colloque, Institut du Monde Arabe, Paris,13.14 Novembre 2003.

25- Louis Duvernais, Sénateur, Rapport d'Information N°91, Senat, Session Ordinaire de 2004-2005 faits au nom de La Commission des Affaires Culturelle sur la Stratégie d'Action Culturelle de la France à l'Étranger.

26 - Albert Salon, liberté Politique, Paris, Automne 1999.

Albert Salon ancien Ambassadeur est Docteur d'Etat ès lettre, Vice Président d'Avenir de la Langue Française et Fondateur de FFI : Forum Francophone International.

27 − هاني إلياس خضر الحديثي، **في عملية صنع القرار السياسي الخارجي** (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1972)، ص 44.

28- جاك أتالي، **الحضارة الغربية تحمل بذور انهيارها**، مقابلة أجرتها سوسن شكري، السياسة الدولية ' العدد 144 ابريل 2004، ص 4.

29 - La France à la loupe : **Les Medias en France, Ministère des Affaires Etrangère et Européennes** (France), Novembre 2007.

30 - Gilbert Grand guillaume, **La Francophonie en Algérie**, La Revue Hermès, 2004/3 (n° 40), Paris.

31 - Colloque « Français-arabe, arabe-français : construire ensemble dans une perspective plurilingue », Institut du monde arabe, 13-14 novembre 2003, Paris.